ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا فى غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله ﷺ حين تحدث إليه بعض من الصحابه يدعونه للإسلام وللجهاد فى سبيل الله فقال: إننا نسقى الحجيج ونرعى البيت، ونفك العانى، ونقوم بعمارة البيت الحرام[1] قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وماقاله العباس هو موجز رأى أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ .

وكلمة ﴿ سِقَايَةَ ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهى المكان الذى يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذى نسميه . السبيل . وكذلك تطلق السقاية : على الإناء الذى نشرب منه الماء، والذى يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك، وفى قصة يوسف عليه السلام يأتى القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف]

أما المعنى الثالث : فهو الحرفة نفسها؛ فنقول : هذه خياطة، وهذه حدادة

(١) ويقول ابن كثير : « قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية » : نزلت فى العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى قال الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك . تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية - إذن - هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحرفة التى يقوم بها السقا.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام، فذلك لايصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولاتتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لايتقبله. والمؤمن المجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقى الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين - قبل الإسلام - فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لايستويان عنده، أى لايساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقال[1]: إن سيدنا الإمام عليا رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، مر على طلحة بن شيبة، والعباس ووجدهما يتفاخران، أى: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى فى الأشياء التى ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعزاه لابن جرير بسنده. وفيه ابن لهيعة. فيه كلام.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس فى الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أى: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذى يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدى مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد عليه العباس: وأنا معى سقاية الحاج ،ولو شئت ألا أسقى أحدا لاستطعت. ومر الإمام على كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ماأدرى ماتقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : «إنَّا قد رضينا، إنَّا قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى حكم، وفى هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التى كانت بين العباس وطلحة لم تكن فى موضعها.

وكلمة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ فى الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس. وقد تجامل نفسك فى مقاييسك. وقد يجاملك الناس فى مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى ؛لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شىء. ولكن المقاييس

التى لا هوى فيها والتى ليس فيها إلا العدل المطلق هى مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شىء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لايدخلهم فى مشيئة هديه، فقال:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطىء، ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ لا يهدى﴾ أى نفى مايستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لايَهْدِى من قدم الكفر؛ أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨]

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له ربا، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لايهدى الكافر، إذن فهو يهدى المؤمن، وأوضح أنه لايهدى الظالم، إذن فهو يهدى العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق، إذن فهو يهدى الطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأ أن يهدينى ؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدى من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

ويقول أيضا:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن فالله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هدايته ومن لا يدخل فيها ، وأنت باختيارك طريقك ، إما أن تؤمن ؛ فتدخل فى الهداية ، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله ؛ فتمتنع عنك الهداية . فإذا جاء أحد يجادلك ؛ ويقول لك : إن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ..(٣١) ﴾ [سورة المدثر]

لك أن تقول له : لقد بيَّن الله عز وجل من شاء له الهداية ، ومن شاء له الضلال ، ولقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - فقلنا : إن الهداية قد وردت فى القرآن الكريم على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق ، وهذه هداية للجميع [١] ، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه ، أى : بيَّن لهم ما يرضيه وما يغضبه وما يوجب رحمته وما يوجب لعنته ، فالهداية الأولى - إذن - وردت بمعنى الدلالة للجميع ، أى : أنها هداية عامة . ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين ، وهى التى بيَّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [سورة محمد]

أى : أعانهم على منهجه ؛ فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى ، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه ، فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ، ويحبب الطاعة إليه ؛ فيزداد طاعة . وإذا شرع فى ارتكاب المعصية ؛ بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها [٢] .

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذى يقود سيارته ذاهبا لمكان معين . وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب فى حديث طويل : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » . أخرجه البخارى (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) فى صحيحيهما .

(٢) وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ [الحجرات]

مفترق الطرق وجد رجلا من رجال المرور ؛ فدله على الطريق، هذه دلالة عامة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور. فرجل المرور يُزيد من الإيضاح له: لاتتبع طريق؛ كذا لأن فيها متاعب ومصاعب، واتبع طريق كذا وكذا تصل فى سرعة ويسر، وهذه زيادة فى الدلالة، أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسه: إن هذا رجل مرور لايعرف شيئاً ، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه.

إذن فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يعانى ويضل. ولذلك لابد لنا أن نتذكر دائما أن الهداية هدايتان؛ هداية دلالة لكل الناس، وهداية معونة للمؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠]

أما دلالة المعونة : فهى التى يقول فيها المولى عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧]

وما يكشف لنا أن الهداية عامة، أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً، قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧]

ولو كانت الهداية هنا بمعنى أنهم أصبحوا مهتدين، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها:

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧]

إذن ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فى هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر .

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وفى سورة الأنفال تصنيف آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال]

وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع فى آية التوبة .

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفى هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، و﴿أَعْظَمُ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهى تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال : فلان أعلم من فلان . وبهذا يكون الشخص الثانى عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه . ويقال: فلان أكرم من فلان، أى أن الموصوف الثانى كريم، والموصوف الأول أكرم منه . والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى :

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله فى هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم. والبشارة ـ كما نعلم ـ هى نوع من الإعلام بشىء سوف يأتى مستقبلا ، أى ،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففائدة البشارة أن تغرى الإنسان بسلوك السبيل الذى يحققها، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة ، ويشجعك كلامى لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التى توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا : إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل مايحققه لك من فرحة، إذن فالشرط سبب فى وجود الجواب واقعا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعا، أى أ: ن الدافع لمذاكرتك هو مايمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب فى النجاح، لكن النجاح لايتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التى تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته ويفرح أهلك بك، وبفرحك بنفسك. ولهذا نقول :إن السبب هو الذى يوجد أولاً فى الذهن.

ومثال آخر: لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف. فتكون الطائف هى الغاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفى ذهنك الغاية، إذن فالجواب يوجد دافعا، والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج ؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره [1] ، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد ، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل» . ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته ، ويفعل ما يشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد ، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى ، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به . فكأن الإيمان جاء ليقيد ، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين ، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة ، وعمره فى الدنيا محدود ، إذن فهو الخاسر ، لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الندنيا ونعيما مقيما لا يزول ولا ينتهى فى الآخرة [2] . والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر ، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو ، وهو قد أعطى نفسه ما تريد ، ولكنه أخذ متعة محدودة ، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره .

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة ، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو . وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره .

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب ، كل منهما أخذ لوناً من المتعة . ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح .

كذلك أنت فى الدنيا ؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و «لا تفعل» ،

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال : حسن غريب من هذا الوجه صحيح .

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

فظاهر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك برضا، فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة فى النفس. ولذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنها تعطى راحة نفسية ، كما أنها تعطى اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يابلالُ أرِحْنَا بالصلاة».(١)

كما قال صلى الله عليه وسلم ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة».(٢)

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة. ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتية من رب خالق. والرب هو المالك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]

والرحمة والرضوان من صفات الله وهى صفات ذاتية فى الله، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) حديث أنس أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، وتمام الحديث «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة فى الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا - ولله المثل الأعلى - إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والرضوان. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم.و المؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة[1]؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية. ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل[2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح بابا من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . يقول : انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » وقد أخرج نحوه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٦) ، قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ــ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشىء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شىء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها والمنزلة التى وصل إليها [1] .

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا فى الدنيا حين يتفوق إنسان فى دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث فى الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾
[الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التى عند الأعلى منزلة. عندما يأتى لزيارته وقد قالوا فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته فى الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففى الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأبها» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذى (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود فى سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفى الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهى التى تعطيك نتاجها. ولست أنت الذى تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق فى كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إنى لأصلى كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تزكون. ولكنى أبيت وليس فى قلبى غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » [1]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك[1] . فإن شهدت زورا لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدقة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط فى نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شىء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا فى مكة، وكانت حياته فى مكة قبل إسلامه غاية فى الترف، وكان يرفل[(١)] فى الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه فى الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[(٢)] وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل : يتبختر فى مشيته ويجرُّ ذيْله .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطَّق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون» أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ،والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيَّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْنا عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أى: طلب إخراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين نأتى إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعى أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن فى الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبعى ــ إذن ــ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لانصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ؛وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1] ، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو .. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : «البر حُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس» . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخذ ما يريد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئا من «دولاب» ما، حتى ولو كان «دولاب» الأب النائم، لذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقامة لاتحتاج إلى تكلف، ولكن الانحراف هو الذى يحتاج إلى تكلف، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقل؛ «أحبوا»، لأن الحب أمر فطرى، فالإنسان ـ مثلا ـ يحب ابنه حبا فطرياً عاطفياً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فلانًا وسأكره فلاناً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى وإن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك، فتبحث عنه ، وتدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتناوله، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه»[(١)]

ووقف عند هذه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنا أحبك عن مالى وأحبك عن ولدى، ولكن كيف أحبك عن نفسى؟ فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلا : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثا، فعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن هذا تكليف. والتكليف لا يأتى إلا بالحب العقلى الذى يمكن أن يقنن. وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعاطفياً. ولكن الحب العقلى هو مناط التكليف، أما الحب العاطفى فلا يكلف به. ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف، لأنه سبحانه لايمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية، فأنت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [1] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]

أى :لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره ؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له: إلو وجهك بعيدا عني ، فإنى لاأحبك. فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولذلك يذيل الحق هذه

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبو داود (٤٨٣٤) .

الآيـة الكريمـــة بقـــوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم نقلـوا الحق من الله سـبحانه وتعـالى إلى الخـلق، ولأنهم ظلمـوا أنفسهم فحرموها مـن الجزاء فى الآخرة ليحققـوا نفعا عاجـلا فى الدنيـا. ولذلـك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ولَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانـه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعـوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطـاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمـردين وجاءك الله بمرض؛ فهـل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جـاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمـرد على الموت وتبعـده عنك فـلا تموت؟. إذن: هنـاك أقـدار لاتستطيع التمـرد عليهـا ، وأنت متمرد ـ فقط ـ فيما لك فيه اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾